تفسير سُورةُ النَّبَأِ
من آية (17) إلى آية (30)
الجزء الثاني

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) [17-20].

المعنى الإجمالي: يقولُ تعالى مبيّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: إنَّ يومَ القيامةِ الَّذي يَحكُمُ اللهُ فيه بيْنَ عِبادِه يومٌ مُحَدَّدٌ بوَقتٍ مُعَيَّنٍ لجَمعِ النَّاسِ، يومَ يَنفُخُ الملَكُ في القَرْنِ لبَعْثِ النَّاسِ، فتأتونَ مِن قُبورِكم إلى مَوضِعِ العَرْضِ جَماعاتٍ، وتتشَقَّقُ السَّماءُ فتكونُ أبوابًا مَفتوحةً، وتُقلَعُ الجبالُ مِن أماكِنِها فتكونُ هَباءً.

قال السعدي: ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله {مِيقَاتًا} للخلق.

(يَسْأَلُكَ الناسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) [الأحزاب:63]

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ ﴿17﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: أنَّ هذا بَيانٌ لِما أجمَلَه قولُه تعالى: عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ [النبأ: 2-3] ، وهو المقصودُ مِن سِياقِ الفاتحةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها السُّورةُ، وهيَّأتْ للانتقالِ مُناسَبةُ ذِكرِ الإخراجِ مِن قولِه: لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا [النَّبأ: 15] إلخ؛ لأنَّ ذلك شُبِّهَ بإخراجِ أجسادِ النَّاسِ للبعثِ، كما قال تعالَى: فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ إلى قولِه: كَذَلِكَ الْخُرُوجُ في سُورةِ (ق) [9- 11].

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) أي: إنَّ يَومَ القيامةِ الَّذي يَحكُمُ اللهُ فيه بيْنَ عِبادِه يومٌ مُحَدَّدٌ بوَقتٍ مُعَيَّنٍ لجَمعِ النَّاسِ للحِسابِ والجَزاءِ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: وأُوثِرَ التَّعبيرُ بـ يَوْمَ الْفَصْلِ؛ لإثباتِ شَيئينِ؛ أحدُهما: أنَّه بيَّنَ ثُبوتَ ما جحَدوهُ مِن البعثِ والجزاءِ، وذلك فصلٌ بيْنَ الصِّدقِ وكَذِبِهم، وثانيهما: القضاءُ بيْنَ النَّاسِ فيما اختلَفوا فيه، وما اعتَدى به بعضُهم على بعضٍ.

قال ابن عاشور: وأفاد فعلُ كَانَ أنَّ تَوقيتَه متأصِّلٌ في عِلمِ اللهِ؛ لِما اقتَضتْه حِكمتُه تعالى الَّتي هو أعلَمُ بها، وأنَّ استِعجالَهم به لا يُقدِّمُه على ميقاتِه.

كما قال تعالى: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ [الدخان: 40].

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ﴿18﴾

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا) أي: وذلك واقِعٌ يَومَ يَنفُخُ المَلَكُ في القَرْنِ لبَعْثِ النَّاسِ أحياءً يومَ القيامةِ، فتأتونَ -أيُّها النَّاسُ- مِن قُبورِكم إلى مَوضِعِ العَرْضِ للحِسابِ والجَزاءِ زُمَرًا وجَماعاتٍ. موسوعة التفسير

قال السعدي: ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له الوليد، وتنزعج له القلوب، فتسير الجبال، حتى تكون كالهباء المبثوث، وتشقق السماء حتى تكون أبوابا، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ ρ، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قرنٌ يُنفَخُ فيه)) صحيح سنن الترمذي.

قالρ:"كيفَ أنعَمُ وقدِ التقَمَ صاحبُ القرنِ القرنَ وحنَى جبهتَهُ وأصغى سمعَهُ ينتَظِرُ أن يؤمَرَ أن ينفخَ فينفخ". صحيح سنن الترمذي.

كما قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) [الكهف: 99].

"ما بيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أرْبَعُونَ. قالوا: يا أبا هُرَيْرَةَ أرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قالَ: أبَيْتُ، قالوا: أرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قالَ: أبَيْتُ، قالوا: أرْبَعُونَ سَنَةً؟ قالَ: أبَيْتُ، ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيَنْبُتُونَ، كما يَنْبُتُ البَقْلُ. قالَ: وليسَ مِنَ الإنْسانِ شيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَومَ القِيامَةِ". صحيح مسلم

قال أبو السعود: أي: فتُبعثونَ مِن قُبورِكم، فتَأتونَ إلى الموقفِ عَقيبَ ذلكَ مِن غيرِ لُبثٍ أصْلًا.

قال ابن عاشور: وحُذِفَ ما يحصُلُ بيْنَ النَّفخِ في الصُّورِ وبينَ حضورِهم؛ لزيادةِ الإيذانِ بسرعةِ حصولِ الإتيانِ حتَّى كأنَّه يحصُلُ عِندَ النفخِ في الصُّورِ، وإنْ كان المعنى: يُنفَخُ في الصُّورِ فتَحْيَوْنَ فتَسيرونَ فتَأتونَ.

وكان النَّبيُّ -ρ- يُحذِّرُ الصحابة مِن اقترابِ السَّاعةِ، ويَحُثهم على حُسنِ العَمَلِ استِعْدادًا لها، وكان في نَفسِهِ حَريصًا على كَثْرةِ عَمَلِ الطَّاعاتِ، وإظْهارِ استِعْدادِهِ لِلِقاءِ اللهِ.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ﴿19﴾

(وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا) أي: وتتشَقَّقُ السَّماءُ وتَنفَرِجُ، فتكونُ أبوابًا مَفتوحةً. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: دليلٌ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ أنَّ هذه السَّبْعَ الشِّدادَ يَجعَلُها اللهُ تعالى يومَ القيامةِ كأنْ لم تكُنْ، فتكونُ أبوابًا.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: هذه الآية الكريمة تشير لمشهد من مشاهد يوم القيامة، ذلك أنه في يوم القيامة تفتح أبواب السماء من جميع الجهات، أبواباً كثيرة لنزول الملائكة الكرام عليهم الصلاة

والسلام، ذلك النزول الذي أشار إليه في قوله تعالى: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا) [الفرقان: 25].

كما قال تعالى: وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [الفجر: 22]، وقال سُبحانَه وتعالى: وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا [الحاقة: 16-17].

■فكانت تلك المواضِعُ المفتوحةُ أبوابًا لِنُزولِ الملائكةِ، الذين لا يعلم عددهم إلا الله، إذا كان البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون كما أخبر النبي ρ، وكما أخبر عليه الصلاة والسلام ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد.

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ﴿20﴾

(وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) أي: وتُقلَعُ الجبالُ مِن أماكِنِها وتتفَتَّتُ تُرابًا، وتكونُ هَباءً، يُخَيَّلُ إلى النَّاظِرِ أنَّها شيءٌ، وليسَتْ بشيءٍ. موسوعة التفسير

قال الألوسي: (فَكَانَتْ سَرَابًا أي: فصارتْ بعدَ تسييرِها مِثلَ سرابٍ، فتُرى بعدَ تفَتُّتِها وارتفاعِها في الهواءِ كأنَّها جبالٌ، وليست بجبالٍ، بل غُبارٌ غليظٌ مُتراكِمٌ يُرى مِن بعيدٍ كأنَّه جبلٌ، كالسَّرابِ يُرى كأنَّه بحرٌ مثلًا، وليس به).

ذكَر تعالى في مَواضِعَ مِن كتابِه أحوالَ هذه الجِبالِ على وُجوهٍ مُختَلِفةٍ، ويمكِنُ الجَمعُ بيْنَها:

بأنَّ أوَّلَ أحوالِها: الانْدِكاكُ، وهو قَولُه: وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً [الحاقة: 14].

والحالةُ الثَّانيةُ لها: أنَ تَصيرَ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ [القارعة: 5]، وقَولِه: (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ) [المعارج: 9].

والحالةُ الثَّالثةُ: أن تصيرَ كالهَباءِ، وذلك أن تتقطَّعَ وتتبَدَّدَ بعدَ أن كانت كالعِهْنِ، وهو قَولُه تعالى: إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا [الواقعة: 4 - 6].

والحالةُ الرَّابِعةُ: أن تُنسَفَ؛ لأنَّها مع الأحوالِ المتقَدِّمةِ قارَّةٌ في مَواضِعِها، والأرضُ تحتَها غيرُ بارزةٍ، فتُنسَفُ عنها بإرسالِ الرِّياحِ عليها، وهو المرادُ مِن قَولِه: فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا [طه: 105].

والحالةُ الخامِسةُ: أنَّ الرِّياحَ تَرفَعُها عن وَجهِ الأرضِ، فتُطَيِّرُها شُعاعًا في الهواءِ كأنَّها غُبارٌ، فمَن نَظَر إليها مِن بُعْدٍ حَسِبَها لتَكاثُفِها أجسامًا جامِدةً، وهي في الحقيقةِ مارَّةٌ، إلَّا أنَّ مُرورَها بسَبَبِ مرورِ الرِّياحِ بها صَيَّرَها مُندَكَّةً مُتفَتِّتةً، وهي قَولُه: (تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) [النمل: 88]، ثمَّ بَيَّن أنَّ تلك الحَركةَ حَصَلت بقَهْرِه وتَسخيرِه، فقال: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) [الكهف: 47].

الحالةُ السَّادِسةُ: أنْ تَصيرَ سَرابًا، بمعنى: لا شَيءَ، فمَن نَظَر إلى مَواضِعِها لم يجِدْ فيها شيئًا، كما أنَّ مَن يَرى السَّرابَ مِن بُعْدٍ إذا جاء الموضِعَ الَّذي كان يَراه فيه لم يَجِدْه شَيئًا.

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) [21-30]

المعنى الإجمالي: يقولُ تعالى مبيِّنًا جزاءَ الكافِرِينَ يومَ القيامةِ: إنَّ جَهَنَّمَ تَرصُدُ أهْلَها وتَرْقُبُهم يومَ القيامةِ، وتكونُ مَصيرًا للَّذين طَغَوا في الدُّنيا ومرجعًا في الآخِرةِ، ويَمكُثونَ فيها دُهورًا طَويلةً لا انقِضاءَ لها، لا يَذوقُونَ فيها بَرْدًا ولا شَرابًا، لكنْ يَذوقونَ ماءً شَديدَ الحرارةِ، وما يَسيلُ مِن صديدِ أهلِ النَّارِ؛ جزاءً مُوافِقًا لأعمالِهم السَّيِّئةِ في الدُّنيا.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى هذا العذابِ، فيقولُ: إنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ والحِسابِ في الآخِرةِ، وكَذَّبوا بآياتِ اللهِ تعالى تكذيبًا، وكُلُّ شَيءٍ مِن أعمالِ العِبادِ أو غَيرِها مَكتوبٌ مَعدودٌ، لا يَخْفى على اللهِ تعالى منه شَيءٌ. ويُقالُ للكُفَّارِ في جَهَنَّمَ: ذُوقوا هذا العَذابَ، فلن نَزيدَكم إلَّا عَذابًا فوقَ ما أنتم فيه!

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ﴿21﴾

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) أي: إنَّ جَهَنَّمَ تَرصُدُ أهْلَها وتَرْقُبُهم يومَ القيامةِ، فلا يُجاوِزُها مَن وَجَب عليه دُخولُها، واستَحَقَّ العَذابَ فيها. موسوعة التفسير

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه التخويف من النار: ... فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط، ويدل على ذلك ما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا كان يوم القيامة أذن المؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار.. -ذكر سقوط اليهود والنصارى في النار ثم قال-: ثم يضرب الجسر على جهنم.. انتهى مختصراً.

وعن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ ρ قال: ((يُضرَبُ الصِّراطُ بيْنَ ظَهرانَيْ(طَرَفَيْها) جَهنَّمَ، فأكونُ أنا وأُمَّتي أوَّلَ مَن يُجيزُ، ولا يتكَلَّمُ يومَئذٍ إلَّا الرُّسُلُ، ودَعْوى الرُّسُلِ يومَئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جَهنَّمَ كَلاليبُ مِثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ ، غيرَ أنَّه لا يَعلَمُ قَدْرَ عِظَمِها إلَّا اللهُ، تَخطَفُ النَّاسَ بأعمالِهم؛ فمِنهم مَن يُوبَقُ (يُهلَكُ) بعَمَلِه، ومِنهم مَن يُخَرْدَلُ (يُقطَّعُ ويُصرَعُ) ثمَّ يَنْجو)) رواه البخاري.

﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ ﴿22﴾

(لِلطَّاغِينَ مَآبًا) أي: تكونُ جَهنَّمُ للَّذين طَغَوا في الدُّنيا، فجاوَزوا حُدودَ اللهِ تعالى: مَصيرًا ومَرجِعًا في الآخِرةِ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: "للطاغين" وهم المردة العصاة المخالفون للرسل "مآبا" أي مرجعاً، ومنقلباً، ومصيراً، ونزلاً.

فهم في شقاء في الدنيا، وعذاب في البرزخ، وعذاب في الآخرة، في ثلاث دور.

قال ابن عاشور: إنَّ الشِّرْكَ أقصى الطُّغيانِ؛ إذ المشركون باللهِ مُعرِضونَ عن عبادتِه، ومتكَبِّرون على رسولِه ρ؛ حيث أَنِفوا من قَبولِ دعوتِه، وهم المقصودُ مِن معظَمِ ما في هذه السُّورةِ، كما يصَرِّحُ به قولُه تعالى: إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا [النبأ: 27-28]. هذا، وإنَّ المسلِمينَ المستحِقِّينَ بحقوقِ اللهِ، أو المعتدينَ على النَّاسِ بغيرِ حقٍّ، واحتقارًا لا لمجرَّدِ غلَبةِ الشَّهوةِ - لهم حظٌّ مِن هذا الوعيدِ بمِقدارِ اقترابِهم مِن حالِ أهلِ الكفرِ.

﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ﴿23﴾

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) أي: يَمكُثونَ في جَهنَّمَ مُدَدًا طَويلةً لا انقِضاءَ لها. موسوعة التفسير

قال السعدي: توقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدها للطاغين، وجعلها مثوى لهم ومآبا، وأنهم يلبثون فيها أحقابا كثيرة و {الحقب} على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿24﴾

(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا) أي: لا يَذوقُ الطَّاغُونَ في جَهَنَّمَ بَرْدًا يُبَرِّدُ أبدانَهم، ويَكسِرُ شِدَّةَ الحَرِّ، ولا شَرابًا يُبَرِّدُ بَواطِنَهم أو يُزيلُ عَطَشَهم. موسوعة التفسير

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ ﴿25﴾

(إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) أي: لَكِنْ يَذوقونَ في جَهنَّمَ ماءً شَديدَ الحرارةِ، وما يَسيلُ مِن أهلِ النَّارِ مِن صَديدٍ وغَيرِه، وهو معَ نتنِ رائحتِه شديدُ البرودةِ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: (والغَسَّاقُ: هو ما اجْتَمَع مِن صديدِ أهلِ النَّارِ وعَرَقِهم ودُموعِهم وجُروحِهم، فهو بارِدٌ لا يُسْتَطاعُ مِن بَرْدِه، ولا يُواجَهُ مَن نَتَنِه).

■وهم يُعَذَّبونَ بأنواعٍ أُخَرَ مِن أنواعِ العَذابِ غيرِ الحَميمِ والغَسَّاقِ، في قَولِه تعالى: هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ [ص: 57-58].

كما قال تعالى: ... فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ [الحج: 19-20].

وقال سُبحانَه: وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ [محمد: 15].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ [الواقعة: 41 - 44].

﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ ﴿26﴾

(جَزَاءً وِفَاقًا) أي: ذلك العِقابُ للطَّاغِينَ مُوافِقٌ لأعمالِهم السَّيِّئةِ في الدُّنيا، فلم يَظْلِمْهم اللهُ تعالى، وإنَّما ظَلَموا أنفُسَهم. موسوعة التفسير

قال ابن رجب: أنَّ تفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العَذابِ هو بحَسَبِ تَفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دَخَلوا بها النَّارَ.

وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم ووفاقا على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها، لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ﴿27﴾

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) أي: إنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ ويُجازَوْنَ على أعمالِهم في الآخِرةِ. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا أي: لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا أنَّ اللهَ يُجازي الخَلْقَ بالخَيرِ والشَّرِّ؛ فلذلك أهمَلوا العملَ للآخرةِ).

قَولُ اللهِ تعالى: إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا فيه سُؤالٌ: أنَّ الكُفَّارَ كانوا قد أتَوا بأنواعٍ مِنَ القبائِحِ والكبائِرِ، فما السَّبَبُ في أنْ خَصَّ اللهُ تعالى هذا النَّوعَ مِن الكُفرِ بالذِّكرِ في أوَّلِ الأمرِ؟

الجوابُ: لأنَّ رَغبةَ الإنسانِ في فِعْلِ الخَيراتِ وفي تَرْكِ المحظوراتِ إنَّما تكونُ بسَبَبِ أن ينتَفِعَ به في الآخِرةِ، فمَن أنكَرَ الآخِرةَ لم يُقْدِمْ على شَيءٍ مِنَ المستحسَناتِ، ولم يُحجِمْ عن شَيءٍ مِنَ المنكَراتِ؛ فقَولُه تعالى: إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا تنبيهٌ على أنَّهم فَعَلوا كُلَّ شَرٍّ، وتَرَكوا كُلَّ خَيرٍ.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ ﴿28﴾

(وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا) أي: وكانوا يُكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ تعالى تكذيبًا شَديدًا مع وُضوحِها ودَلالتِها على الحَقِّ. موسوعة التفسير

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ﴿29﴾

(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) أي: وكُلُّ شَيءٍ مِن أعمالِ العِبادِ أو غَيرِها مكتوبٌ مَعدودٌ مَضبوطٌ، لا يَخْفى على اللهِ تعالى منه شَيءٌ. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (قيل: أي: كَتَبْناه في اللَّوحِ المحفوظِ لتَعرِفَه الملائكةُ. وقيل: أراد ما كُتِبَ على العِبادِ مِن أعمالِهم، فهذه كتابةٌ صَدَرَت عن الملائكةِ الموكَّلِينَ بالعبادِ بأمْرِ اللهِ تعالى إيَّاهم بالكِتابةِ).

فلا يخشى المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة

كما قال تعالى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: 49].

وقال سُبحانَه: وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [القمر: 52-53].

﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ ﴿30﴾

(فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) أي: يُقالُ للكُفَّارِ في جَهَنَّمَ تَوبيخًا وتَقريعًا لهم: فذُوقوا هذا العَذابَ، وسنَزيدُكم عذابًا فوقَ ما أنتم فيه. موسوعة التفسير

قال الطنطاوي: أي: إن جهنم معدة ومهيأة لهؤلاء الطغاة بسبب أعمالهم القبيحة، وسيقال لهم يوم القيامة على سبيل الإذلال والإهانة، ذوقوا سوء عاقبة كفركم وفسوقكم وعصيانكم، فلن نزيدكم إلا عذابا فوق العذاب الذي أنتم فيه.

قال السعدي: وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].

أي كما قال الله تعالى: كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ [النساء: 56].

وقال عزَّ وجلَّ: مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا [الإسراء: 97].

وقال سُبحانَه: الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ [النحل: 88].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ) رواه البخاري (3087) ومسلم (617).

فيه سؤالٌ: أليس أنَّه تعالى قال في صفةِ الكُفَّارِ: وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ [آل عمران: 77]، فهنا لَمَّا قال لهم: فَذُوقُوا فقد كَلَّمهم؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

■الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ تقديرَ الآيةِ: فيُقالُ لهم: فَذُوقُوا.

■الوَجهُ الثَّاني: أن يقالَ: إنَّ قَولَه: وَلَا يُكَلِّمُهُمُ، أي: ولا يكَلِّمُهم بالكلامِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ؛ فإنَّ تخصيصَ العُمومِ غيرُ بعيدٍ، لا سيَّما عندَ حُصولِ القرينةِ؛ فإنَّ قَولَه: وَلَا يُكَلِّمُهُمُ إنَّما ذكَرَه لبيانِ أنَّه تعالى لا ينفَعُهم، ولا يُقيمُ لهم وزنًا، وذلك لا يحصُلُ إلَّا مِن الكلامِ الطَّيِّبِ.

وأيضًا فيومُ القيامةِ يومٌ طويلٌ، فيُكلِّمُهم الله تعالى في وقتٍ، ولا يُكلِّمُهم في آخَرَ.